

\*Fahmi Romdhani | فهمي رمضانى

## مراجعة كتاب أخبار التونسيين: مراجعات في سردية الانتماء والأصول

Book review of *Tunisian's Tales: Reviews of the  
Narratives of Aaffiliation and Origins*

المؤلف: لطفي عيسى.  
عنوان الكتاب: أخبار التونسيين: مراجعات في سردية الانتماء والأصول.  
الناشر: دار مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس.  
سنة النشر: 2019.  
عدد الصفحات: 350 صفحة.

\* أستاذ مبرز في التاريخ، معهد المغيرة فوشانة، تونس.

مما لا شك فيه أن حرفة المؤرخ اليوم لم تُعد متصلة ببيئة وقائع الماضي وسرد أخبار الأزمنة الغابرة والعصور السحرية وأحداثها، بل أصبح دوره أكثر ارتباطاً بقضايا العصر وإشكاليات الحاضر المعقد الذي ما انفك يطرح مسائل تكتسي أهمية كبيرة، وفي الوقت نفسه يتطلّب الإمام بها جهداً معرفياً ومنهجياً؛ فخارج حاجات الراهن، لا يمكننا الحديث اليوم عن تاريخ في حقيقة الأمر. ولا مندودة من الإقرار بأن المؤرخ مطالب بأن يكون عنصراً فعالاً في المجتمع من خلال انخراطه في النقاش الثقافي والفكري السائد، من أجل المساهمة في إيجاد إجابات عن المسائل التي قد تطفو على سطح الواقع بين الفينة والأخرى، والمساهمة أيضاً في فهم الماضي وتمثل الحاضر واستشراف المستقبل.

في هذا الإطار، تُعتبر مسألة الانتقام وقضايا الهوية من أهم الإشكاليات التي أصبحت تحظى باهتمام مجتمعي متزايد، خصوصاً من المؤرخين، فضلاً عن كونها تُعد من الأسئلة التي تخرق المجتمعات العربية الإسلامية في الوقت الراهن؛ إذ لا يزال النقاش محتدماً بشأن السردية والروايات الجماعية ودور المؤرخ في إعادة تركيبها وصوغها وفق المستجدات الراهنة، تزامناً مع تحول اهتمامات العلوم الإنسانية، وعلى رأسها التاريخ، لدراسة الفرد والبحث في العناصر المشكّلة لشخصيته وانتماهه عبر التاريخ، بدلاً من كتابة تاريخ الإمبراطوريات والدول والسلطات، أو التاريخ للحروب والمعارك والأحداث.

هذا هو ما يجسده المؤلف الأخير للمؤرخ التونسي لطفي عيسى **أخبار التونسيين مراجعات في سردية الانتقام والأصول**؛ إذ حاول من خلاله مراجعة السردية الجماعية للتونسيين بشدّها إلى مختلف انتماهاتها، زمانياً ومكانياً، وإعادة تركيبها على نحو يخدم حاجات الراهن وقضايا الحاضر. ويمكن القول إن الكتاب تمثّل ونظر في قضايا مرتبطة بإستيمولوجيا المعرفة التاريخية وفلسفتها، وفي كيفية كتابة تاريخ تونس من جديد، وهو ما أصبح أقرب إلى تاريخ التونسيين من تاريخ البلاد. وفي هذا الباب، يرى المؤلف أن المؤرخين اليوم يجب أن يكتبوا تاريخ التونسيين، وليس تاريخ تونس (ص 336-337)، خصوصاً بعد التحولات الفارقة التي عرفتها البلاد مؤخراً، منذ عام 2011.

اعتمد المؤلف مقاربةً استأنست بأحدث المناهج التي توصلت إليها الكتابة التاريخية لمعالجة العديد من الإشكاليات؛ إذ تكمن طرافة منهج المؤرخ في أنه اعتمد على مدونات مخصصة، يمكن نعتها بالتاريخ الموازي، لم توضع بعرض التاريخ، إنما من أجل الحفاظ على المخزون التراثي غير المادي، معولاً في ذلك على خبرته الطويلة في مجال التاريخ وتمكنه من مقاربات ومناهج حديثة ومعاصرة تستفيد مما وصلت إليه العلوم الإنسانية والاجتماعية من تطور معرفي ومنهجي على حد سواء.

لطفي عيسى هو مؤرخ تونسي، حاصل على شهادة التبريز في التاريخ وشهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، وهو متخصص في التاريخ الثقافي وتاريخ الذهنانيات والتاريخ المقارن لمجال المغرب خلال الفترة الحديثة. نشر العديد من المؤلفات منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، نذكر منها **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**<sup>(1)</sup>؛ ومميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر<sup>(2)</sup>؛ ومغرب المتضوّفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحرراك الاجتماعي<sup>(3)</sup>؛ وكتاب **السير: مقاربات مدونات المناقب والتراجم والأخبار**<sup>(4)</sup>؛ وبين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية<sup>(5)</sup>.

1 لطفي عيسى، **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ** (تونس: سراس للنشر، 1993).

2 لطفي عيسى، **مميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر** (تونس: سراس للنشر، 1994).

3 لطفي عيسى، **مغرب المتضوّفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحرراك الاجتماعي** (تونس: مركز الشّرّاجي وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005).

4 لطفي عيسى، **كتاب السير: مقاربات مدونات المناقب والتراجم والأخبار** (تونس: دار المعرفة للنشر، 2007).

5 لطفي عيسى، **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية** (الدار البيضاء: أفرقيا الشرق، 2016).

كما أُسهم في مؤلفات جماعية ومشتركة، نذكر منها **السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية**<sup>(6)</sup>. وتحقيق كتاب **نور الأرمادش في مناقب القشاش**<sup>(7)</sup> للمنتصر بن مرابط القصبي.

علاوة على ذلك، نشر العديد من المقالات والمساهمات العلمية في الدوريات العلمية المحكمة وأعمال الندوات والمؤتمرات والأعمال المهدأة والكتب الجماعية والموسوعات العلمية والمجلات الثقافية والصحف والملاحق الثقافية. كما أنه يدير منذ عام 2011 مدونة رقمية تُعنى بتاريخ المغرب وبواقعها الراهن، السياسي والفكري والفنى.

يعتبر لطفي عيسى الذي يُدرّس في الجامعة التونسية منذ تسعينيات القرن الماضي، من أهم المجددين في الكتابة التاريخية في تونس، حيث يسعى دائمًا للتطرق إلى المواضيع الراهنة والمعقدة التي يتطلب الخوض فيها إلماً جيداً بالمعارف الإنسانية والاجتماعية والمناهج التاريخية الحديثة والمعاصرة، ويبدو أن كتابه الذي بين أيدينا في هذه المراجعة، والذي نال جائزة الطاهر الحداد للدراسات الفكرية، مغامرة فكرية تكشف عن الهاجس الذي تُورق فكر هذا المؤرخ منذ سنوات؛ إذ ما انفك يدعو إلى إعادة قراءة المروية الجماعية للتونسيين وإعادة تركيب سرديتها الجماعية بطريقة تخدم حاجات الحاضر.

يقع الكتاب في 350 صفحة، موزعة على أربعة فصول، مع مقدمة وخاتمة، مستعيناً في ذلك بمنتقيات بيليوغرافية، وقد ختم كل فصل ببحث طريف عبارة عن منتقيات مصدرية جاءت على سبيل المراقبة والحاشية والاستطلاع والإهداء.

يمكن اعتبار جلّ الفصول التي أثنت هذا الكتاب تقضيّاً للأخبار التونسية وانتماءاتهم الجمعية عبر البحث في أزمنة متعددة من الذاكرة الجماعية؛ إذ انطلق المؤرخ عبر "الزمن الأسطوري" أو "زمن الحكاية" الذي حفر من خلاله في مدونة الخرافات والأمثال الشعبية، مبرزاً دورها في الكشف عن مميزات الشخصية التونسية، لينتقل بعد ذلك إلى "زمن المجال"، حيث أكد فيه حقيقة التنوع الذي تتضوّي عليه مسألة الانتماء تونسياً، وربط تاريخ التونسيين وأخبارهم بمحاجلات جغرافية متعددة ثبت تأثير تاريخها في صنع انتماءاتهم المختلفة. أما الزمن الثالث الذي وُسّم بـ"زمن الرزنانة"، فمثل زمن الاستطلاع وحب المعرفة الجذلي، حيث عالج فيه المؤرخ تنامي فضول النخب ورغبتهم في اكتشاف المعارف والعلوم ومعانقة الفكر التتوري. أما الزمن الأخير، فكان زمن الذات والوجودان، حيث احتوى مراجعات حول شخصية التونسيين من خلال البحث في مميزاتها وفي العناصر الناظمة لها. وستتطرق إلى مضمون هذه الفصول الأربع، محاولين عرض أهم الأفكار التي أوردها المؤرخ في مؤلفه.

جاء الفصل الأول بعنوان "ديوان الخرافات الشعبية التونسية"، وهو حفر عميق في أركيولوجيا الخرافات والأمثال الشعبية التي لم تُعرّفها الأبحاث التاريخية اهتماماً جيداً. ولئن انتمت هذه المدونة المصدرية إلى تراث غير مادي وشفوي، فإنّ أهميتها تكمن في أنها تتسجّل وشائجَ عميقةً بين الماضي والحاضر، باعتبارها "بصمات ثقافية احتفظت بها ذاكرة جماعية حيّة" (ص 33)، وثقت للمشترك الجماعي ولعيش السلف. واعتمد المؤرخ على كتاب سالم ونيس (1948) **الحكاية الخرافية والشعبية**<sup>(8)</sup>، وكتاب محمد رضوان العبادي مجمع **الأمثال الشعبية التونسية**<sup>(9)</sup>، محاولاً بذلك البحث عن مميزات شخصية التونسيين وعلاقة مدونة الحكايات والأمثال الشعبية بصنع أخبارهم وتشكيل ذائقتهم.

6 حياة عمamu ولطفي عيسى ومنصف التايب، **السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية** (تونس: دار أمل للنشر، 2005).

7 المنتصر بن مرابط القصبي، **نور الأرمادش في مناقب القشاش**، تحقيق لطفي عيسى (تونس: المكتبة التيةقة، 1998).

8 سالم ونيس، **الحكاية الخرافية والشعبية** (تونس: دار سخون للنشر والتوزيع، 2016).

9 محمد رضوان العبادي، **مجمع الأمثال الشعبية التونسية** (تونس: دار سخون للنشر والتوزيع، 2018).

في هذا الإطار، ومن أجل التعمق أكثر في فهم شخصية التونسيين، يقترح المؤرخ التوقف عند لغة التونسيين أو لهجتهم وضرورة الإمساك بالدلول الدقيق لها "فروح التونسي لهجته" (ص 35)، بحسب تعبيره. وأبانت الدراسات المختلفة التي لم يتوان المؤرخ في الإطلاع عليها والاستفادة منها أنّ التونسيين يتعاملون في ما بينهم وفق شيفرة خطابية تنمّ عن حضور آداب الكياسة والسلوك وتحليلهم أيضاً بخصلة الكرم التي نجدها خاصةً لدى سكان الحواضر الذين امتلكوا معجم المجاملة عبر التراكم التاريخي، وكذلك بفضل ما اكتسبوه من تجارب وتقنيات عبر الإضافات الحضارية الوافدة.

عرض المؤرخ عيسى الخرافات التي تضمنها كتاب ونيس، وهي خرافات ضاربة في القدم، تتنتمي إلى أزمنة أسطورية بعيدة، توزّعت بين حكايات الحيوان الخرافية والحكايات العجائبية التي يكون فيها للعجائبي والخوارق مكانة كبيرة، ثم الخرافة الدينية والشعبية والفكاهية، مؤكداً أهميتها ودورها في الكشف عن المشترك الجمعي بين التونسيين، وأمامت حكايات الحيوان الخرافية اللشام عن تمثّلات التونسيين، سواء كانوا من سكان المدن أو من سكان البوادي والأرياف، لخصوصيات الوسط الذي عاشوا داخله وتعاملوا مع مختلف مكوّناته. في حين أحالت الخرافات الدينية على معتقدات التونسيين الدينية؛ مثل الإقبال على تحصيل الثواب، وعشقنبي الإسلام، والتبرّك بأهل البيت، وحب الصحابة. عموماً، كشف النسيج الخرافي، بكل أصنافه، عن مخصوص ما ترسب ضمن ذهنيات التونسيين الجماعية، فضلاً عما اكتنزه المخيال الجماعي من قيم أرست، من دون شك، المعلم الجوهرية لشخصيتهم، ونحتت القيم المغفرة في تجاويف شخصيتهم القاعدية.

ينهي المؤرخ هذا الفصل بالإشارة إلى ملاحظة منهجية مهمة مفادها أن في إمكان الخرافة أن تتحول إلى شكل من أشكال التاريخ الذي يوثّق عن طريق الذاكرة وفصاحة اللسان، كما أن اعتمادها على الترميز جعلها تتخرّط في كل الأزمنة والأمكنة، لتصبح بذلك تراثاً جماعياً ومعيناً لا ينضب، له وظائف أخلاقية وسلوكية يسهل تعقب مغازيها ودلائلها عبر ثنايا السرد (ص 69).

ينتقل المؤلف في ما بعد إلى **الزمن الثاني**، "الزمن المجالي" الذي اختار له عنواناً: "سردية الانتقام في مفتاح التاريخ"، وهو بحث في كتاب البشير صفر (1865-1917) (أحد زعماء الحركة الوطنية التونسية في بداية القرن العشرين) **مفتاح التاريخ**<sup>(10)</sup> - الذي لا يبتعد كثيراً في رأي المؤلف عن منجز المؤرخ الفرنسي جيل ميشل Jules Michlet (1798-1874) في خصوص تاريخ فرنسا - عن تعدد الانتقامات المجالية للتونسيين ومحاولة توسيعها لتنفتح على غيريات جغرافية أليفة وأخرى غريبة، ثبت تأثير تاريخها في صنع انتقاماتهم المختلفة.

تطرق المؤرخ في البداية إلى مسار شخصية البشير صفر (1865-1917)، حيث لم يتهيّب من اعتباره أباً للنهضة التونسية الثانية بعد خير الدين التونسي (1820-1890)، نظراً إلى فرادة مساره الثقافي والعلمي ودوره في الدفع نحو التسويق والتحديث للخروج من وطأة الركود الذي كانت ترزح تحته البني الفكرية والمالية. وكان لهذه الشخصية دور في مواصلة المشروع الإصلاحي والتحديسي الذي تجذر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في البلاد التونسية. وتميز نشاط البشير صفر الثقافي أيضاً بكتافته، حيث نشر مقالات عدّة في جريدة **الحاضرة**<sup>(11)</sup>، اهتمت أساساً بالتعريف بالنظم السياسية والاجتماعية المحدثة، والإهاطة بالأوضاع التاريخية والجغرافية لبلدان أوروبا، كما كان له اتصال مع النخب المشرقة التوّيرية الداعية آنذاك إلى تحديث الفكر الديني والأخذ بأسباب التقدّم والرقي، من أمثال محمد عبده ومحمد فريد. **ألف** البشير صفر أيضاً كتبّاً عدّة، نذكر منها **الجغرافيا عند العرب**<sup>(12)</sup>؛ **مفتاح التاريخ**، وهو مجموع الدروس التي ألقاها على طلاب الجمعية الخلدونية في المدة 1897-1908، حيث عرض فيه تواريХ متعددة ومتّوّعة؛ إذ تطرق إلى تاريخ المcriين

10 محمد البشير صفر، **مفتاح التاريخ: مفكريات ومقالات تاريخية**، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2009).

11 أول جريدة غير رسمية تصدر في البلاد التونسية بعد الاحتلال الفرنسي، صدر عددها الأول في 12/8/1888. واستمرت حتى عام 1911.

12 محمد البشير صفر، **الجغرافيا عند العرب**، ترجمة حمادي الساحلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987).

القدامي والروماني والإغريق والفينيقيين والقرطاجيين، مروراً بالعصور الإسلامية، ووصولاً إلى التاريخ الحديث للإمبراطورية العثمانية وتاريخ الأمم الأوروبية. وأبان ذلك كله عن وعي لدى البشير صفر في خصوص ضرورة توسيع الاتتماءات الجغرافية للتونسيين وتعريفهم بحضارتهم القديمة التي كان لها مجد أثيل قبل الحضور العربي الإسلامي فيها.

لذلك، اعتبر المؤلف أن العروض التي استجلبها البشير صفر في *مفتاح التاريخ*، والتي تناولت في جزء منها أصول سكان الإيالة وتاريخ قرطاج والحروب البونية، ثم الحضور الروماني وحركة الرومنة، مروراً بانتشار اللسان اللاتيني، ووصولاً إلى السلم الروماني، ثم الحضور الوندالي، ثم البيزنطي، عملت كلها على محاولة مصالحة التونسيين مع تاريخهم القديم وتعريفهم بالأدوار الحضارية المهمة التي قامت بها البلاد التونسية خلال الفترة القديمة، وهي أدوار مجيدة، خلّدتها حضارات كان لها إشعاع عالمي، مثل حضارة قرطاج البونية. ولا ريب في أن ذلك يمثل دعوة ضمئية إلى تجاوز المقاربات التي ترکن إلى النوازع الإسلامية المركزية وتهمل الفترة القديمة السابقة على الحضور العربي الإسلامي، ولعل ذلك مثل توجّهها واعيّاً من البشير صفر، يروم من خلاله فتح أعين التونسيين على تاريخهم القديم الذي شهد بزوع حضارات ازدهرت فيها العلوم والفنون والأداب، لإحاطتهم بتفاصيل هذا التاريخ كلها، وبث روح جديدة تناضل من أجل استعادة هذا الوطن المسلوب، فيما أتاه البشير صفر شكل، من المنظور الخاص بالمؤلف "نقطة فارقة أعادت فتح باب التفكير حول إشكالية الاتتماء" (ص 111).

لم يقتصر جهد البشير صفر على محاولة مصالحة التونسيين مع تاريخهم القديم فقط، بحسب رأي المؤلف، بل إنه عمل أيضاً على توسيع مجالات انتتماءاتهم ومحاولته تأكيد حقيقة تنوع هذه الاتتماءات الجغرافية والثقافية، وكانت الغاية من ذلك إعادة صوغ تمثّلهم مسألة الانتساب. وفي هذا الإطار، تعلّقت همة البشير صفر في محاولته عرض تاريخ مجالات جغرافية، سماها المؤرخ "الغيريات الألية"، وهي المجالات التي أحالت إلى انتساب التونسيين إلى "إمبراطورية إسلامية عالمية"، عبر سرد ونقل تواريχ أمم ومجاالت تقاطع تاریخها مع تاريخ البلاد التونسية؛ إذ عرض البشير صفر تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتاريخ العرب البائدة والعربية والمستعربة، وتاريخ الدولة الإسلامية منذ ظهور النبوة حتى العصور الكلاسيكية، كما توسيع في استجلاب أوضاع ثلاثة مجالات اعتبارية، شددت كتلة أخبارها، دون غيرها، المؤلف، وتضمنت هذه الأخبار بلاد الأندلس من الفتح الإسلامي حتى موعد طرد المسلمين من غرناطة، وأوضاع بلاد المغرب الأقصى من الفتح حتى توقيع سلاطينها معاهدي الحماية الإسبانية شمالاً وجنوباً، والفرنسية في ما بقي من التراب المغربي، ثم عرض أخيراً تاريخ السلطة العثمانية من التأسيس حتى السنوات الأخيرة التي سبقت إعلان الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة (3 آذار / مارس 1924). وأسهم المؤلف بذلك في تسهيل عملية إعادة تمثّل التونسيين إشكالية الانتساب بما يساعدهم، بحسب تعبير المؤرخ، في "تحفييف شعورهم القوي بالدونية الناتجة عن هامشيتهم المجالية التي جعلتهم يتّرجحون باستمرار بين صعوبة تجاهل بصمات الغربية الماثلة على أراضيهم والمتّصلة في ماضيهم البعيد وحاضرهم القريب من جانب وتغلّب الهوية الشرقية ذات المضمون العربي الإسلامي في جانب موازٍ" (ص 112-111).

لئن أحالت الغيريات الألية إلى انتساب التونسيين إلى إمبراطورية إسلامية عالمية، فإن الغيريات الغربية تناولت مجالات جغرافية تنتهي إلى الفضاء الأوروبي الغربي، حيث استحضر البشير صفر التواريχ الفارقة التي عاينها بعض المماليك الأوروبيّة، مثل فرنسا وإيطاليا والأمة الإنكليزية، وما ارتبطت به هذه الأمم من علاقات عريقة، ضاربة في القدام، بالبلاد التونسية، ذلك من أجل تأكيد تعدد الغيريات الغربية المتصلة بتاريخ التونسيين وتنوع انتتماءاتهم الجغرافية وافتتاحها على مشترك حضاري وتاريخي كوني؛ إذ ما عاد الاتتماء مرتبطاً بالفضاء العربي والإسلامي فحسب، بل أصبح يشمل أيضاً فضاءات غربية وغيريات ثقافية وحضارية، تؤكّد افتتاح البلاد التونسية أمام عوامل الماشقة والاختلاط.

يتنتقل المؤلف بعد ذلك إلى الزمن الثالث، زمن الاستطلاع وحب المعرفة الجذلي، معتمداً على الرزنامة التونسية لـ محمد بن الخوجة (1869-1942)، وأثر زين العابدين السنوسي (1901-1965) تاريخ الأدب التونسي خلال القرن الرابع عشر هجري، ليُبرّز لنا تنامي فضول التونسيين من النخب عند بداية القرن العشرين تجاه المعارف والأداب والفنون الجميلة ورغبتهم في التجديد والتحديث وشحذ العزائم للخروج من التخلف والركود بعد أن ملأت أنفسهم الرغبة في الاستطلاع الشامل والبحث عن المعرفة الجذلي.

عرض المؤرخ في البداية مسارات بن الخوجة والسنوسي، حيث كان لكليهما مساهمة فعالة في النهضة الثقافية والحضارية في بدايات القرن العشرين، كما كان لهما دور في تطوير الحركة الأدبية والثقافية والدعوة إلى الإصلاح والتجدد والاشغال بتجديد المعارف.

بالنسبة إلى بن الخوجة، توقف المؤلف عند إسکالية السياقات الخصوصية لمساره المهني والمعزفي، فهو من جهة مثقف ومؤرخ منشغل بالتاريخ التونسي ومولع به؛ ومن جهة أخرى موظف وإطار تونسي محسوب على الإدارة الاستعمارية، مؤكداً في الوقت نفسه ضرورة تجاوز بعض التقييمات غير المبنية لمساره الفردي، حيث نجح بن الخوجة في تطوير أساليب صوغ المعرفة التاريخية ومراكمتها من خلال ترکيب سردية تاريخية جديدة، تمحورت حول توضيح الخصوصيات المحلية لتاريخ التونسيين. وقد ساهمت مختلف أبحاثه التاريخية، بلا جدال، في تبسيط المعرفة بالتاريخ الوطني التونسي، وفي تأثيث محتوى الرزنامة التونسية والإشراف على صدورها طوال الفترة الفاصلة بين عامي 1900 و1917.

أما في ما يتصل بسيرة زين العابدين السنوسي، فأشار المؤرخ إلى تأثره بمسار والده الفكري والثقافي، حيث كان منصراً إلى الدعوة إلى الإصلاح وتطوير الحركة الأدبية والثقافية ومقاومة الاستعمار. وعلى الرغم من غياب المؤشرات الدالة على التزامه السياسي أو انضمامه إلى تيار أو حزب معين، فإن ما طبع مساره الفردي هو نشاطه الثقافي الدؤوب؛ إذ عمل في الصحافة ونشر مجلة العالم الأدبي، وصدرت له مقالات عدّة في مجلة البدر والزهرة والنهاية والحرية، كما كانت له دراية واسعة باللغتين العربية والفرنسية، وتولى بعد الاستقلال إدارة مؤسسة الرائد الرسمي فترة قصيرة. وعموماً، فإن ما ميز مسار بن الخوجة والسنوسي هو "الانشغال بتجديد المعارف وتقديم انسلاخ مضمونها المحدثة في أصناف المعارف القديمة التي مثّلتها بطبع المؤلفات التونسية أو الأجنبية الموضعة في اللغة العربية أو تلك المنقولة والترجمة إليها" (ص 162)، على حد تعبير المؤرخ.

بعد التعرض للمسارات الفردية لكل من بن الخوجة والسنوسي، يتناول المؤرخ ضمن مبحث ثانٍ من هذا الفصل مغامرة الرزنامة التونسية التي يمكن اعتبارها دليلاً لضبط التواريخ والتعريف بالمؤسسات السياسية القديمة والمحدثة من الإدارة الاستعمارية، فضلاً عما تم تضمينه داخلها من عروض فلكية وفلكية وأدبية وحضارية وتاريخية ذات طبيعة تثقيفية وإعلانات تُعرف بالمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية وبالعروض الفنية والنشاطات الثقافية والصحف والنشرات العمومية والخاصة، ويتنزل هذا المشروع ضمن سياق تاريخي اتسم بوجود وعي جديد لفائدة ضبط الزمن وتحديده، في ظل تسارع التقليبات وتعدد الابتكارات والاختراعات والاكتشافات؛ إذ صار التقويم من أوكد ضرورات الحياة العصرية، سواء بالنسبة إلى الأمم المتحضرة أم إلى تلك التي لم تزل تعيش في تبعية ولم تستعد سيادتها على أراضيها.

يشكل هذا المشروع، من منظور المؤلف، "أبرز إسهام معرفي تجمعي أتجزه ابن الخوجة" (ص 170)، حيث استفاد منجز الرزنامة من التكوين الموسوعي لصاحبه وثقافته المتينة المتسمة بالتنوع، ومن معرفته الجيدة والدقيقة بالتاريخ التونسي. هذا فضلاً عن مساهماته الكثيرة في الصحف والمجلات العلمية، على غرار *الحاضرة*؛ وشمس الإسلام؛ والمجلة الريتونة. وتمثل مغامرة الرزنامة أيضاً "أداة توعوية غير مسبوقة تونسياً" (ص 172)؛ إذ ساهم نشرها الدوري والسنوي في تطوير علاقة النخب المتعلم والمهنيين من التونسيين بالفضول المعرفي والارتقاء بمستوى الحاجات الجديدة للمتعلم التونسي الطامح إلى ترسيخ الوعي بانت茂ائه إلى أمة منغرسة في التاريخ،

وتطمح إلى إثبات ذاتها والخروج من واقع الوصاية الذي تردد فيه. وعموماً، يهدف ما جاء به بن الخوجة في الرزنامة، إلى توسيع فضول النخب تجاه شتى تصانيف المعرفة، وشحذ فضولهم للاطلاع على تاريخهم الخاص وتاريخ باقي أمم المعمورة حتى يتتسّى لهم الالتحاق بركب الحضارة والاتخراط في التاريخ مع الأمم المتقدمة.

يشير المؤرخ أيضًا إلى فكرة مهمة تمثل في أن من بين أهداف من عكفوا على تحرير مواد الرزنامة "محاولة التجاوب والتفاعل مع ما كانت تعرفه الأمم المتحضرة من جذوة في الإقبال على المعرفة الجذل والرغبة في الاكتشاف والاستطلاع وماركة المعارف وتوسيع دائرة الثقافة العامة" (ص 201)، والتعرف إلى كل ما هو جديد، وبذلك تكون مغامرة الرزنامة التي خاضها بن الخوجة نافذة مفتوحة على العالم الجديد الربح ودعوة للتونسيين حتى ينفتحوا على جديد المعارف وينقبلوا عليها بكل شغف؛ إذ لم يعد مدلول الرقي من معنى إذا ما تم اختزاله في ما حصله السلف.

لا تختلف كذلك مضامين الموسوعة التي أجزّها زين العابدين السنوسي المتعلقة بالأدب التونسي خلال القرن الرابع عشر الهجري عن العروض التي احتوتها الرزنامة؛ إذ عبرت هي الأخرى عن مشروع ثقافي يرنو إلى التغيير واستيعاب سُنن الزمان وتوسيع آفاق المعرفة والتعرّف بالأداب التونسية، فقد كان لزين العابدين السنوسي نشاط ثقافي وفكري مكثف، تجلّى من خلال مبادرته بإنشاء الصحف وإصدار المجلات ودعوته إلى تجديد مناهج المعرفة التاريخية وتدبر واقع الأدب التونسي وتاريخه. وهذا ما نجده في ثانياً الموسوعة التي أجزّها حول الأدب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري، حيث حاول التطرق إلى تاريخ الأدب التونسي والتعرّف بأعمال الشعراء والأدباء التونسيين؛ مثل محمد الشاذلي خندر (1881-1954)، وحسين الجزيري (1894-1974)، وأبي القاسم الشابي (1909-1934)، وغيرهم، كما جمع بين النقد الأدبي والإبداع القصصي، وهذا ما يدل بوضوح على شغفه بالمعارف وتاريخ الثقافة التونسية والأداب الجميلة. واستعلن المؤلف بمقالة مخطوطة للكاتب والروائي التونسي شكري المبخوت (1962) حول "قصة الأدب العربي في عهد النهضة"، لبيان نصّج فكرة البحث التاريخي عند السنوسي وطراطه إنتاجه الأدبي، حيث أكد فكرة مفادها أن الغرب تحول بحدثه العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والإبداعية إلى مرجعية مطلوبة لقيام أدب عربي مناسب للوضعية الجديدة التي صار يعيشها العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر، وهذا ما كان يسعى له السنوسي؛ إذ كشفت مختلف إنتاجاته الفكرية وإبداعاته الأدبية قدرات استثنائية "بوصفه مؤلّفاً مُلهمًا ومؤرّخاً وناشرًا آمن بالاتّمام إلى وطن وفكّر وأمة" (ص 209)، من جهة، واستيعابه مختلف تصورات وتوجهات نقاد الأدب المغارقة والغربيين، من جهة أخرى. وقد ذلك المؤرخ إلى ضرورة "تعديل الرؤية الحدية المنقوصة التي استندت عليها السردية التاريخية لمشروع الدولة الوطنية وذلك عبر توضيح أشكال اشتراك النخبة الزيتوبية المنحازة إلى معانٍ الإصلاح والتحديث والعمل على تحرير الوطن واستعادة السيادة" (ص 233).

يمثل الفصل الرابع (الأخير) "زمن الذات أو الزمن الوجداني" ، وهو فصل أراد من خلاله المؤرخ البحث في العناصر الناظمة الشخصية التونسية، من خلال التعميل على العروض التي وردت في مؤلف محمد بن عثمان الحشائحي (1853-1912) العادات والتقاليد التونسية<sup>(13)</sup>، وما خطّه الأب ديمرسمين (1901-1993) في مقالاته.

لئن عمل الحشائحي على البحث في مضمون الثقافة المادية ومختلف المعارف والقيم والمعايير التي طبعت تصرفات التونسيين، محاولاً في ذلك توسيع اطّلاع الإدارة الحامية على ما شكّل الشخصية القاعدية للتونسيين، فإن ما خطّه الأب ديمرسمين، يعتبر محاولة لوضع أنسس نظرية للشخصية التونسية والعناصر الناظمة لها من أجل فهم واقعهم المعيش أكثر فأكثر والتعمق فيه.

<sup>13</sup> محمد بن عثمان الحشائحي، العادات والتقاليد التونسية: الهديّة أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، تقديم محمد العلاوي (تونس: سراس للنشر، 1994).

انطلق المؤلف، في مبحث أول من هذا الفصل، من فكرة الشخصية التونسية بين المعرف الإنسانية والعروض المدرسية. وقد بين في البداية اهتمام علماء الاجتماع والمؤرخين ورجال الأدب والحضارة بالبحث في مسألة الشخصية التونسية، حيث أثروا في شأنها العديد من الدراسات التي يمكن أن نذكر منها مؤلف المؤرخ هشام جعيط (1935-2021) *الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي*<sup>14</sup>. وممؤلف المفكر ووزير الثقافة الأسبق البشير بن سالمة (1931-1949) *الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها*<sup>15</sup>. وكذلك مؤلف أستاذ علم الاجتماع المنصف وناس (1956-2020) *الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية*<sup>16</sup>، وأخيراً الدراسة الطريفة للمؤرخ الهادي التيمومي *كيف صار التونسيون تونسيين؟*<sup>17</sup>. وعالج هؤلاء جميعاً مفهوم الشخصية التونسية وفق مناهج مختلفة، مثل المنهج الثقافي والمنهج التحليلي النفسي الشفافي والمنهج السوسيو-تاريخي. وعلى الرغم من ذلك، فإن مسألة الشخصية القاعدية التونسية تبقى مفهوماً غامضاً، يصعب تعريفه بدقة، أو الإلام بمختلف جوانبه، كما أشار إلى ذلك المؤرخ.

في إطار إلقاءه نظرة على تصورات العروض التاريخية المدرسية وعلاقتها بالهوية التونسية، من خلال الاستعارة بعض الدراسات والبحوث الجامعية، يُبرّز المؤلف العلاقة الوطيدة بين الشخصية الوطنية والمدرسية للتاريخ، ويعود ذلك - في نظره - إلى الاختيارات السياسية من جهة، حيث تحاول السلطة دائمًا فرض قراءة معينة للتاريخ، توظّفها لصلحتها وللتحديات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية من جهة ثانية. ويُقرّ كذلك بأن الذاكرة المدرسية ما زالت تقدم إلى الناشئة التونسية مقاربة أقرب إلى القراءة السياسية للتاريخ من المعالجة المعرفية المتوازنة، "تجسيداً لاختيارات الفاعلين السياسيين الرامية إلى إضفاء مزيد من الشرعية على السلطة الحاكمة من دون أن يحصل تصالح بينها وبين الواقع التاريخي" (ص 273).

يتخيّر المؤرخ في ما بعد الوقوف عند جوانب من سياقات مسار الأب ديمرسمين وعثمان الحشائحي اللذين كانت لهما توجّهات تراثية غير خافية؛ إذ كان الأب ديمرسمين منفتحاً على التراث التونسي ومولعاً بالبحث الدقيق في واقع التونسيين ومميزات شخصيتهم، على الرغم من تمسّكه بالهوية الدينية وسيطرة الشاغل التبشيري الكاثوليكي عليه. أما الحشائحي، فعلى الرغم من انبهاره بمنجز الدولة الحامية وانحيازه إلى الوعود التي قدّمتها الحماية الفرنسية في خصوص نشر رسالتها الحضارية وانتشال التونسيين من الجهل، فإن مساره يؤكد انتخاته ضمن مشروع حرص على متابعة شخصية التونسيين وعاداتهم وصناعتهم وتقاليدهم وكل ما يمثّل بصلة لعيشهم اليومي. لذلك، يستنتاج المؤرخ أنه على الرغم من اختلاف مسار تكوين الشخصيتين، فإنّهما تشرّكاً في كونهما قد عملتا على تعقب نسق التونسيين اليومي ومحاولتهما التعمّق أكثر في سمات شخصيتهم على صعيد التاريخ وعلى صعيد الموروث المادي والثقافي أيضاً.

لا ريب في أن فهم شخصية التونسيين يتطلّب البحث في ما راكموه من موروث ثقافي، من أجل فهم خصوصيات المجال الذي استوطنه، وكيفية تمثّلهم واقعهم المعيش، وللقيام بذلك، يستند المؤرخ إلى العروض التي اكتنزها كتاب الحشائحي، الذي لا يختلف كثيراً عن أساليب البحوث الإثنولوجية التي قام بها المستكشفون والملعون بالرحلة من الأوروبيين، حيث عرض فيه الحشائحي كل ما يميز التونسيين من تقاليد وعادات تخصّ التنشئة وأساليب التحصيل، وكل ما يتعلّق بأعمالهم وأخلاقهم وطباعهم أيضاً "منذ بروزهم في الأرحام إلى أن يوضّعوا في الرغام" على حد قوله، ما يحيّلنا على المشترك الشفافي للتونسيين الذي يكشف، بلا شك، عن ثوابت الشخصية التونسية وتحولاتها.

14 هشام جعيط، *الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي* (بيروت: دار الطليعة بيروت، 2008)، أما النسخة الأصلية فصدرت عن الدار الفرنسية ساي في عام 1974.

15 البشير بن سالمة، *الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها* (تونس: مؤسسات بن عبد الله، 1974).

16 المنصف وناس، *الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية* (تونس: الدار المتوسطية للنشر، 2010).

17 الهادي التيمومي، *كيف صار التونسيون تونسيين؟* (تونس: دار محمد علي الحامي، 2014).

ينتقل المؤلف في ما بعد إلى الحديث عن ثوابت الشخصية التونسية وتحولاتها؛ إذ اعتمد على بعض المقالات التي نشرها الأب ديمرسين في المدة 1958-1961، المتعلقة بمحددات الشخصية التونسية، حيث يُقرّ المؤرخ في البداية بضرورة تبني أشكال التداخل بين المعرف الإنسانية والاجتماعية لدراسة مكونات الشخصية التونسية التي تبقى مهمة عسيرة جدًا، نظرًا إلى صعوبة تمييز العناصر الثابتة من العناصر المتحولة، مؤكداً في الوقت نفسه على تفرد شخصية التونسية: إن؛ إذ يظهر ذلك من خلال امتلاكهم لهجة تحيل على معانٍ مخصوصة، وتنسم بمرونتها وتشعبها وينتظم فيها الخطاب وفق شيفرة خاصة.

انتهى المؤرخ إلى بيان الأبعاد التي أسهمت بحفظ وافر في بناء الشخصية القاعدية للتونسيين، وهي الوحدة والتنوع وال التواصل. فالشخصية التونسية تنسم في الوقت نفسه بالوحدة والتنوع؛ إذ نجد عند المجتمع التونسي قدرة على إنجاز تجانس مذهل، على الرغم من تنوع العناصر الناظمة لانت茂انه وتنوعها، وهي متمثلة في الأصول العرقية واللغة والدين والحضارة. وفضلاً عن ذلك، تنسم الشخصية التونسية بالامتداد والتواصل، وهذا ما يظهر من خلال توافر الموروث التاريخي في أبعاد ثلاثة ثابتة: ذاكرة الأساطير المؤسسة، والإسهام في الحضارات المتوسطية، والتعبير عن التمسك بالتقاليد. ويسُتتَّج من خلال ذلك أن خاصية المرونة تشكل عنصراً محورياً ضمن الشخصية القاعدية للتونسيين مع قدرتهم الفائقة على التأقلم.

على الرغم من ذلك، فإن المؤرخ لا يتواتي في الإقرار بتشعب الشخصية التونسية واحتتمالها على تصورات سلوكية متناقضة ومتضاربة في بعض الأحيان؛ "إذ يحرص التونسيون على تحقيق توازن بين الأصداد، فهم يزاوجون بشكل لافت ومربي حقاً بين الكياسة والخشونة والمرونة والتصلب والرجولة والاتزان" (ص 320). وعموماً، ختم المؤرخ هذا الفصل بالإشارة إلى أن ما خطه الحشايشي من أفكار تعلقت بتقاليد التونسيين وعاداتهم، يتوافق مع مشاغل الأب ديمرسين، حيث انخرط الاتنان في البحث عن الجينوم الثقافي للتونسيين من خلال سير مختلف تصرفاتهم وإدراك مكونات شخصيتهم وخصوصيات عوالمهم السطحية.

مثلت خلاصة الكتاب مراجعات منهجية وإبستيمولوجية في خصوص راهن الكتابة التاريخية، حيث أكد ضرورة تسلح مؤرخ اليوم بأدوات معرفية ونظرية جديدة لمقاربة إشكاليات مختلفة ما انفك تزايده، وتكمّن أهمية هذا المؤلف في أنه نجح في استقراء مصادر محسوبة على التاريخ الموازي، وذلك لإعادة قراءة ماضي التونسيين والغوص في أخبارهم لبناء مرويّة جماعية جديدة تستجيب لمتطلبات المرحلة الراهنة، وتعيد صوغ السردية الوطنية بالبحث في الأزمنة المفقودة داخلها. وقد لا يبالغ إن قلنا إن الكتاب لا يعدو أن يكون تأكيداً من المؤرخ على فكرة طريفة مفادها أن الهوية لا يمكن أن تكون إلا أرضاً متحركةً متعددةً تأبى الثبات، وتتنزع دائماً إلى احتضان التنوع والتنوع والاختلاف.



## المراجع

### References

- بن سلامة، البشير. **الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها**. تونس: مؤسسات بن عبد الله، 1974.
- بن مرابط القصي، المتصر. **نور الأرماد في مناقب القشاش**. تحقيق لطفي عيسى. تونس: المكتبة العتيقة، 1998.
- التيمومي، الهادي. **كيف صار التونسيون تونسيين؟** تونس: دار محمد علي الحامي، 2014.
- جعيط، هشام. **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**. بيروت: دار الطليعة بيروت، 2008.
- الحشائحي، محمد بن عثمان. **العادات والتقاليد التونسية: الهدایة أو الفوائد العلمية في العادات التونسية**. تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى. تقديم محمد العلاوي. تونس: سراس للنشر، 1994.
- رضوان العبادي، محمد. **مجمع الأمثال الشعبية التونسية**. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2018.
- صفر، محمد البشير. **الجغرافيا عند العرب**. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- ———. **مفتاح التاريخ: مفكرات ومقالات تاريخية**. تقديم وتحقيق حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2009.
- عمامو، حياة ولطفي عيسى ومنصف التايبي. **السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية**. تونس: دار أمل للنشر، 2005.
- عيسى، لطفي. **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**. تونس: سراس للنشر، 1993.
- ———. **مميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر**. تونس: سراس للنشر، 1994.
- ———. **مغرب المتصوفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحرك الاجتماعي**. تونس: مركز النشر الجامعي وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005.
- ———. **كتاب السير: مقاربات لمدونات المناقب والتراث والأخبار**. تونس: دار المعرفة للنشر، 2007.
- ———. **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية**. الدار البيضاء: أفرقيا الشرق، 2016.
- وناس، المنصف. **الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية**. تونس: الدار المتوسطية للنشر، 2010.
- ونيس، سالم. **الحكاية الخرافية والشعبية**. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2016.